أنين صامت

سها يحيى محمد - مصر

"ثمة أوجاع تُعذب أرواحنا ولا يستمع لأنينها سوانا، نئِد جراحها في أعماقنا ونفضل الكتمان على بوح يقهره الشفقة، نتظاهر بالسعادة ونرسم ابتسامة باهتة على شفاهنا وبداخلنا نار تشتعل، حرب متناقضة بين الظاهر والباطن لا تنهزم فيها إلا قلوبنا الواهنة".

انتهت من كتابة تلك الكلمات ثم ضغطت على زر "نشر"، لتظهر كلماتها على صفحات إحدى مجموعات "الفيس بوك" التي تهتم بالكتابة، تنهال عليها الإعجابات والتعليقات فتغمرها السعادة، تتوقف عند إحدى التعليقات.. "حروفك كالأوتار عزفت لحن ألمي ببراعة، كيف أجدتي نغم جحيمي إلى هذا الحد وكأنكِ تقاسمينني الوجع؟".

تعجبت من أحرفه وما حملت من بلاغة وألم في آن واحد، لم تجد ردًا مناسبًا لكلماته فلجأت لحصنها الدائم ألا وهو الصمت، وبعد قليل انتبهت إلى رسالة من غريب، إنه الشخص ذاته صاحب التعليق المختلف، يرسل إليها بكلمات أكثر ألمًا.. "أنتِ لا تعلمين كيف أزالت كلماتك الغبار عن قهر مدفونًا بداخلي منذ زمن، بات يمزق كل ذرة في روحي حتى تآكلت وأصبحت كالقشة تعصف بها أي ريح تافهه".

رجفة اجتاحت جسدها ما أن انتهت من قراءة كلماته، ظلت تنظر إلى الرسالة بدموع عاجزة، إنها تفهم جيدًا ما تحمله تلك الكلمات من وجع، تشعر بالضياع الذي تنشره أحرفه، لكنها لا تُحادث الغرباء، فالتزمت الصمت للمرة الثانية، لكن الأمر لم ينته بعد!.

رسالة أخرى تتبع الأولى لتثير فضولها لذلك الشخص الذي تقطر حروفه ألمًا.. "أتابع كلماتك منذ عدة أشهر، لن أخفي عليكِ لقد تعلق قلبي بكِ، أصبحت أتابع كل كلمة لكِ، حتى أدمنت حروفك، أبحث عنها كالمجنون، انتظرها كجرعة مورفين، وما أن تسري في أوردتي حتى تنتشي روحي وتهدأ ثورتي".

علامات تعجب ارتسمت على ملامحها، أن كلماته بها سحر خفي يُداعب مشاعرها، لا تعرف لماذا يخفق قلبها كلما قرأت أحرفه؟، بدأ الخوف يتسرسب إلى روحها، فعادت لعادتها الصامتة.

ظلت تتلقى رسائله التي لا تنضب في صمت، تنتظر أحرفه بلهفة كل ليلة، تقرأها فيخفق قلبها، تتمنى أن يصله صدى أنينها الصامت من كلماته، تود لو تُرسل له حرفًا واحدًا ولو بالخطأ لتخبره أنها هنا تتابع أحرفه، إلا أنها تمسكت بصمتها، خشيت أن تبني جسرًا من الكلمات بينهما حتى لا ينهار بها في النهاية كما اعتادت.

وذات يوم بعث لها.. "إنها رسالتي الأخيرة لكِ، لن أزعجك بضجيج مشاعري بعد اليوم، لن أحدثك عن جحيمي وآلامي وضياعي، سأتوقف عن رسم صورتي القاتمة لديكِ، لن أكتب لكِ عن ذلك التيار العاصف الذي اجتاح كياني منذ أن رأيت أحرفك، ولا عن تلك الدقات التي تُزلزل قلبي ما أن ترى اسمك، لن أخبرك بما فعلت بي كلماتك، وفي النهاية أود أن أقول سلامًا لقلبٍ تمنيت قربه فابتعد".

حزن باغت قلبها ما أن رأت رسالته، لمعت عيناها بالدموع وسارعت بالكتابة له.. "لن أتحمل يومًا يمر دون كلماتك، لقد أصبحت أتنفس أحرفك، فأرجو منك ألا تحرمني من بقائها".

جاءتها كلماته سريعًا.. "أتعلمين كم تمنيت أن يصلني ردًا منكِ، حلمت بتلك اللحظة كثيرًا، لم أمل الانتظار، ولم استسلم لليأس، وأنا على يقين بأن قلبك الرقيق سيمزق هالة القسوة من عليه ويحدثني ذات يوم، وها هو إيماني يتحقق وأرى أحرفك بين رسائلي".

كتبت له.. "كنت أخشى عذوبة كلماتك، فالكلمات بالنسبة لي أخطر الأسلحة، يكفي إطلاق أحرفها الساحرة حتى تسلب منك روحك وأنت على قيد الحياة، وأنا أعلم جيدًا أن الموت أهون كثيرًا من الحياة دون روح".

أرسل إليها.. "لا تخافي لم آت لتعذيبك، أردت رسم الحب على صفحات قلبك، ونثر ألوان العشق على دفاتر روحك، ثقي بي وأطلقي لقلبك العنان فربما يختارني حبيبًا".

هامت روحها بين طيات أحرفه، استسلم قلبها لغزو طيفه، إلا أن الخوف من الفقد ظل يؤرق قلبها، وصفت له قسوة ذلك الشعور، فقد ذاقت مرارته كثيرًا، واطمأنت لوعده لها بألا يذيقها إياه.

ظل الحب يُداعب قلبها بخوف حتى أخبرها ذات يوم بسر أخفاه عنها.."ولدت بعجز في يدي، خشيت البوح به لكِ، أظن أنه سببًا كافيًا للبعد، الاختيار أمامكِ ولا لوم عليكِ".

كتبت له.. "كيف تمنحني الاختيار؟، ألديك شك في اختياري لك؟، سأكون أنا يدك ستستند علي".

أرسل إليها.. "لكن كلمات الناس جارحة، تتلصص عيونهم دائمًا على التفاصيل، تبحث عن أي عجز، وتشمت في أي عيب، لا يدركون كم هو قاسي شعور النقص، لا يفهمون أن الأقدار لا يد لنا فيها".

كتبت له.. "لن أتركك مهما جرحتنا الألسنة، لن ننهزم أمام عيون ساخرة".

زادت سعادتها وتعلقها به بعد ذلك الاعتراف، اطمأن قلبها إليه كثيرًا، تلاشت مخاوفها وأيقنت أن الفقد لن يعرف طريقهما.

وذات يوم طلب لقاءها، خفق قلبها بشدة، كانت تنتظر تلك اللحظة وتخشاها، أرادت أن يُمهلها بعض الوقت إلا أنه ألح عليها باشتياقه.

ذهبت إليه في ذلك المقهى الفاخر لتجده في استقبالها، لم يكن اللقاء الأول لهما كما ارتسم في خيالها، ظل صامتًا وكأن بلاغته تبخرت، يختلس النظر إلي وجهها بين الحين والآخر دون أن ينطق بكلمة.

انقبض قلبها من نظراته، إنها تعرف تلك النظرات جيدًا، فقد هربت كثيرًا من ظلمها، تصبب وجهها عرقًا، واعتلت الحمرة وجنتيها، ظلت تكذب إحساسها، تقذف بظنونها بعيدًا، ودت لو فهمت ما يدور بداخله، وعندما يئست من صمته أرادت أن تُنهي اللقاء فوافقها.

ظلت تحبس دموعها حتى وصلت إلى بيتها، ارتمت على فراشها وراحت تبكي دون توقف، أمسكت الهاتف بيد مرتجفة لترى كلماته بعد اللقاء، فلم تجده في قائمة أصدقائها، ولم يمكنها حسابها من الوصول إلى حسابه، لقد فعلها!.

وقفت أمام المرآة والدموع مازالت تتساقط من عينيها، تتأمل ملامحها بحزن، تتذكر حين قال لها إن الأقدار لا يد لنا فيها، تتحسس تلك الندبة التي تشوه وجهها، فقد كانت السر وراء حبه ورحيله!